المصطلح التعليمي عند عبد الرحمن الحاج صالح في ظل النظرية الخليلية الحديثة .

سبع فاطمة الزهراء
باحثة دكتوراه
جامعة الشلف

ظهر في الوطن العربي اتجاه لغوي عرف بالمدرسة الخليلية يريد أن يستفيد من الانجازات الكبيرة التي وصل اليها البحث العلمي اللغوي منذ ظهور اللّسانيات في الغرب خلال القرن العشرين في إعادة إحياء التّراث اللّغوي العربي، وتحويله إلى تطبيقات نافعة تساهم في مشروع ترقية و تطوير اللغة العربية، وقد اقترح العالم اللغوي الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح منهجا عربيا أصيلا تتجلى فيه رؤية هذه المدرسة، وسم بالنظرية الخليلية الحديثة.

وبما أنّها نظرية علمية تنفرد بمجموعة خاصة من المصطلحات، وهي عبارة عن مفاهيم وأقوال علمية للعلماء الذي تميزت جهودهم وأفكارهم بالأصالة التّامة.

كما قسمنا دراستا إلى قسمين:

الأول: إسهامات الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في وضع المصطلح الجديد.

الثاني:أهم المصطلحات ومفاهيمها التي وظفها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في إعداد أنجع الطرائق لتعليم اللغة العربية.

الثالث:إلى أي مدى يمكن استثمار النظرية الخليلية الحديثة في مجال تعليم اللغة العربية ؟.

مصطلح التعليمية (didactique)

يشير العديد من الباحثين إلى تعدد المصطلحات التي تقابل المصطلح الأجنبي didactique،ويرجعون ذلك إلى تعدد مناهل الترجمة ،و أيضا إلى ظاهرة الترادف في اللغة العربية.

ففي الوقت الذي اختار بعض الباحثين استعمال ديداكتيك تجنبا لأي لبس في مفهوم المصطلح ،كما نجد باحثين آخرين يستعملون علم التدريس و علم التعليم و باحثين قلائل يستعملون مصطلح تعليميات مثل لسانيات ،رياضيات ....إلخ .

وأما مصطلح تدريسية فهو استعمال عراقي ،و لم يشع استعماله ،غير أن المصطلح الذي شاع في الاستعمال أكثر من غيره هو تعليمية .[1]

وقد تعدّد مفهوم مصطلح التعليمية عند الكثير من العلماء ،وعلى الخصوص العلماء الغربيين .فقد عرّف جان كلود غاينون(J.C.Gagnon) .في دراسة له أصدرها سنة 1973 بعنوان:"ديداكتيك المادة " التعليمية كمايلي: إشكالية إجمالية و دينامية ،تتضمن:

- تأملا و تفكيرًا في طبيعة المادة الدراسية وكذا في طبيعة و غايات تدريسها.
- اعداد لفرضياتها الخصوصية ،انطلاقا من المعطيات المتجددة و المتنوعة باستمرار لعلم النفس و البيداغوجيا و علم الاجتماع .....إلخ .
- دراسة نظرية و تطبيقية للفعل البيداغوجي المتعلق بتدريسها .[2]

كمّا يتجه البعض إلى القول بأنّها :"مجموع الطرائق و التقنيات و الوسائل التي تساعد على تدريس مادة معيّنة ".[3]

وخلاصة القول أن التعليمية تهتم بالتصورات النظرية ،وبالعمل التطبيقي الموسم بالتدريس.

فروعها: جل التعريفات تتمحور حول التعليمية تأخذ بالاعتبار المثلث التعليمي .

مفهوم مصطلح التعليم عرف التربويون التعليم بأنّه :

عملية تحفيز و إثارة قوى المتعلّم العقلية و نشاطه الذاتي ،بالإضافة إلى توفير الاجواء و الامكانيات الملائمة التي تساعد المتعلم على القيام بتغيير في سلوكه.[4]

–ويعدّه آخرون بأنّه "عملية تلقين التلاميذ معلومات مختلفة وتدريبهم على أداء العمليات أو التجارب المنصوص عليها في المنهج الدراسي ".[5] و جملة القول هو :" نقل المعلومات منسقة إلى المتعلم ".[6]

مفهوم مصطلح التّعلم:

كمّا عرّفه البعض بأنّه :" عملية اكتساب الوسائل المساعدة على إشباع الحاجات و الدوافع و تحقيق الأهداف ،وهو كثيرا ما يتخذ صورة حل المشكلات ".[7]

نظريات التّعلم:

لقد تعددت النظريات اللغوية التي تناولت عملية اكتساب الطفل لغته الأم ، وبحثت عن أهم الطرق و الأسس التي ارتكزت عليها هذه العملية ،وقد برزت من جملتها ثلاث نظريات هامة تتمثل في :

النظرية السلوكية: تمركزت النظرية حول مفهوم السلوك و علاقته بعلم النفس، و بالتالي ينبغي لنا أن نعرض لمفهوم هذا المصطلح الذي منه جاءت تسمية النظرية فهو:

"مجموعة من الاستجابات الناتجة عن مثيرات المحيط الخارجي طبيعيا كان أو اجتماعيا".[8] يفسر السلوكيون التعلم بأنّه تغير في سلوك المتعلّم نتيجة تكرار الارتباطات بين الاستجابات،

و المثيرات في البيئة الخارجية باستخدام التعزيزات .[9]

النظرية المعرفية:في نقيض النظرية السلوكية ظهرت النظرية المعرفية و التي انتقدت المدرسة السلوكية التي اختصرت العملية المعرفية في المشير و الاستجابة.و تعد الدراسات الميدانية التي قام بها بياجي"J.Piaget" حول الاكتساب اللغوي عند الطفل همزة وصل بين الدراسة النفسية و الدراسات اللغوية. فنمو المعرفة لدى الطفل يحدث نتيجة تمكنه من التكييف و التلاؤم مع البيئة لذا فهي نظرية قائمة على مبدأ الذكاء.[10]

النظرية اللغوية: ظهرت على يد تشومسكي"N.chomsky" صاحب النحو التوليدي التحويلي و الذي عالج اللغة من منطلق أنّها مكوّن من مكونات العقل الإنساني ونتاج عقلي خاص بالإنسان[11] ، أي أن سلوك الإنسان يمليه العقل و لا يخضع لمبدأ المثير و الاستجابة الذي اعتمد عليه السلوكيون بتركيزهم على السلوك ظهر المنهج العقلي و الذي انتقل الاهتمام فيه من "البيئة" و"العوامل الخارجية" إلى الطفل ذاته، أو إلى المتعلم ذاته ،حيث إن تّعلم اللّغة يجري وفق قدرة فطرية في الإنسان.[11]

مصطلح النحو العلمي و النحو التعليمي عند عبد الرحمن الحاج صالح:

كانت للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح وقفة قيمة على المصطلحات العربية الأصيلة من خلال التراث اللغوي ، فراح يؤكد أنّ استثمار هذه المصطلحات في عصرنا هو ميدان واسع جدًا إذ يقول :" وتجري الآن في المركز الذي أتشرف بتسييره بحوث في استغلال مفهوم المثال ــ وهو عربي أصيل لا وجود له في اللسانيات العربية ــ وماله علاقة به في وضح طرائق تعليمية تكون أنجح ممّا هو موجود الآن في تعليم القواعد النحوية و الصرفية .[12]

وهذا مفهوم من بين المفاهيم المتعددة التي استثمرها الأستاذ في مجال تعليم اللغة العربية منها:مفهوم الباب و مفهوم الأصل و الفرع، القياس.....إلخ و غيرها من المصطلحات باعتبارها مصطلحات عربية قديمة، إلى أن جاء الأستاذ و أبرز معانيها

الحقيقية كما يوصي بضرورة الاطلاع على ما وصل إليه علم السان الحديث من تطور في الدراسات اللغوية و خاصة علم اللغة التعليمي. الذي يهتم بالطرائق و الوسائل التي تساعد على تعلم اللغة و تعليمها.[13] فهو علم كغيره من العوم يحتاج إلى منظومة من المصطلحات تعين الباحث في هذا المجال و تجلي المفاهيم سواء كانت قديمة أو حديثة، فاللسانيات التطبيقية بفرعيها:"تعليمية اللغات و علم المصطلح " تقدم معرفة علمية و تربوية خصبة،فكلها علوم تطبيقية يمكن استثمارها في ترقية اللغة العربية و تطوير طرائقها التعليمية،وجعلها تنفتح على آفاق معرفية جديدة تتجلى في مفاهيم و مصطلحات جديدة تتعلق بممارسة البحث في اللغة العربية و آدابها و بممارسة تدريسها.[14]

مفهوم النظرية الخليلية الحديثة :

هي نظرية لسانية عربية معاصرة، نتجت عن جهود متواصلة، حيث هي قراءة جديدة للتراث الأصيل و يتمثل فيها كتب في القرون الأربعة الاولى بعد الهجرة،وما كتب بعد هذه الفترة من بحوث قيمة من طرف العلماء عباقرة كعبد القاهر الجرجاني و الرضي و غيرهم، وفي هذا يقول عبد الرحمن الحاج صالح:" وأغلب ما تناولنا بالتحليل و التقويم هو ما ذكر من الاقوال العلمية للخليل ابن أحمد في كتاب سيبويه تفوق 600 قولا و تحليلا و غيره، ولذلك نسبت النظرية إليه بالتغليب ....."[15]

وظلّ الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح يدع إلى قراءة التراث بمنظار علمي بعيد عن التعسف والانبهار بالنظريات الغربية، كما أكّد على وجود فروق بين نحو الأولين ونحو المتأخرين فالأول هو نحو علمي قائم على مفاهيم ومبادئ، والثاني هو نحو تعليمي هدفه تيسير القواعد النحوية للمتعلمين مما حجب أقوال المتقدّمين، أي الخليل وشيوخه وتلامذته.

وعليه فالنظرية الخليلية الحديثة تهدف إلى تعريف الباحث العربي في علوم اللسان بالأهمية التي تكتسيها نظرية النحاة العرب. وهي في الواقع نظرية ثانية لأنّها في الوقت نفسه تنظير وبحث في الأسس النظرية الخليلية الأولى.

*مكانة النظرية الخليلية الحديثة:

تعتبر هذه الدراسة (النظرية الخليلية) قراءة حديثة للنحو العربي الأصيل الذي تركه الخليل وتلميذه سيبويه ومن سار على دربهما، يقول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح:" وصفت بالحديثة لأنّها تمثل اجتهادًا علميا تقويميا صدر في زماننا أدى الى قراءة جديدة لما تركه الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه إلى غاية القرن الرابع...[16]فهي إذن تقوم على إحياء المبادئ التي وضعها الخليل إحياءً اجتهاديًا لا تقليديا أعمى.

كما بيّن الأستاذ الهدف من هذه الدراسة فيقول: فالغاية من هذا البحث هو قبل كا شيء التعريف بهذه النزعة التي تصف نفسها بأنّها امتداد منتقى للآراء والنظريات التي أثبتها النحاة العرب الأولون وخاصة الخليل بن أحمد،وفي الوقت نفسه مشاركة و مساهمة للبحث اللساني في أحدث صورة و خاصة البحث المتعلق بتكنولوجيا اللغة .[17]

المبادئ التي يرتكز عليها في صناعة تعليم اللغة في ذاتها:

التركيز على المتعلم و احتياجاته و حال الخطاب:

سرّ النجاح في تعليم اللّغات ينحصر في التركيز على المتعلم لا على المادة اللغوية و علمي تعلّم اللّغة تظهر أهمية حال الخطاب و قرائنها و أهمية العلاقات الموجودة بين المتكلّم و المخاطب و الخطاب.[18]

اكساب اللغة هو اكتساب مهارة معينة :

يرى الأستاذ أنّ اكتساب المتعلّم للغة هو اكتسابه لملكة معيّنة ،وهي مهارة التّصرّف في البنى اللغوية بما يقتضينه حال الخطاب و ليس إكسابًا لعلم النحو أو علم البلاغة ،فالمعروف عن تعليم اللغات أنّه ايصال لمعطيات لغوية مادة و صورة و

العمل على ترسيخها....ومن ثمّ خلق القدرة على التصرف فيها ...فالعمل الاكتسابي للغة يكاد يكون كلّه تمرّسا و رياضة مستمرة :كلما زادت و تواصلت زاد النمو اللغوي و قويت الملكة.[19]

المشافهة:

باعتبار أن الكلام هو الأصل و المكتوب فرع عليه فإن اللغة لا تنحصر فيما يكتبه النّاس من أدباء و غيرهم بل هي أيضا أصوات تلفظ و تُسمع،و أن المخاطبات اليومية تشكل القسط الأوفر من استعمال الناس للغة،فهذا الجانب الحي من اللغة قد كان تناساه المربون و صاروا لا يلتفتون إلاّ إلى النصوص الأدبية خاصة .[20]

الانغماس اللغوي:

يرى عبد الرحمن الحاج صالح أن هذه المهارة (الملكة اللغوية) لا تنمو و لا تتطور إلا في بيئتها الطبيعية وهي البيئة التي لا يسمع فيها صوت أو لغو إلا بتلك التي يراد اكتسابها...فمن أراد أن يتعلم لغة من اللغات فلا بدّ أن يعيشها وأن يعيشها هي وحدها لمدة زمنية فلا يسمع غيرها و لا ينطق بغيرها و أن ينغمس في بحر أصواتها.[21]

العناية بالنحو و البلاغة معًا:

فتفضيل أحدهما على الآخر إجحاف باللغة و تعقيم لتعليمها،و كما كان التمييز بين النحو و علم النحو فيجب أن يكون هناك تمييز بين البلاغة و علم البلاغة فالمقصود من تعليم اللّسان للمتعلم في نظر عبد الرحمن الحاج صالح هو إكساب المتعلم القدرة العلمية لا النظرية على استعمال اللسان و ليس أن نجعل منه متخصصًا في علوم اللسان كعلمي النّحو و الصرف و علم البلاغة.[22]

جرد المصطلحات التعليمية وتحليلها:

يعد المصطلح التعليمي من بين المصطلحات اللغوية التي يجب أن تحظى بالدراسة فمن بين المصطلحات النحوية العربية الأصيلة، أعادها الأستاذ مفهومها الأول كما قصده واضعوها ثم حاول توظيفها في مجال تعليم اللغة العربية بتخصيصها بمفهوم اصطلاحي حسب قوانين الاستعمال مع مراعاة القوانين التي يخضع لها الوضع والقياس: ومن بين هذه المصطلحات هناك مصطلحات لا وجود لمفاهيمها عند الغرب فاصطلح لها الأستاذ المقابل الأجنبي مثل:

- مصطلح المثال يقابله مصطلح (le Schème Générateur).
- مصطلح اللفظة يقابله مصطلح(Lexie).

وهناك مصطلحات موجودة ومستغلة في الدّراسات اللغوية الغربية مثل: مصطلح الانغماس اللغوي الذي يقابله المصطلح الأجنبي: "Le Bainlinguistique" وهو مصطلح ذا أهمية كبيرة في المرحلة الأولى لاكتساب المهارة اللغوية، كما نجد مصطلحات رياضية مستغلة من زمن الخليل منها: مصطلح المصفوفة (Martice) يسميها الخليل وأتباعه القياس والحد أو الباب والمثال.

- وهناك مصطلحات استغلها الأستاذ كمراحل من أجل اعداد طريقة تعليمية لتبليغ الخطاب من المعلم إلى المتعلم وهذه المصطلحات هي:

الانتقاء و التخطيط و الترتيب و التبليغ ،فهي مصطلحات عامة معروفة لدى الجميع ولكن الاستاذ أعطى المقاييس التي ينبني عليها هذا الانتقاء و التخطيط و ذلك الترتيب ،ثم كيفية التبليغ و الترسيخ ،ولنجاح عملية التبليغ للمادة المعنية التي يتم ترسيخها بكيفية أكثر نجاعة يوصي الاستاذ بضرورة توظيف التمارين النبوية (Exercicesstructuraux) حسب ترتيبها

ابتداء من الحكاية المجردة و الاستبدال الساذج ففي الحقيقة هي مصطلحات نبوية استثمرها الاستاذ من أخل تمكين المتعلم على استعمال مكثف للغة ومنه تثبيت السلوكات اللغوية .

ونلاحظ كذلك أنّ المعنى الاصطلاحي لهذه المصطلحات وهو ما يقابل الاستعمال عند الأستاذ نجده يقابل تماما الوضع اللغوي لها.

وهذا ما يثبت أنّها مصطلحات عربية أصيلة استنبطها عبد الرحمن الحاج صالح من التراث كما هي بمفهومها الأصلي هذا من جهة ومن جهة أخرى قام باقتراح مصطلحات عربية مقابل بعض المصطلحات الأجنبية،بل تجاوز ذلك إلى إثباته أنّ هذه المفاهيم الجديدة كانت موجودة عند العرب وهم السّباقون إليها.

لقد استطاع العالم عبد الرحمن الحاج صالح بفضل حنكته و جهوده المتواصلة أن يجمع بين مرجعتين،الحضارة العربية القديمة و الحضارة الغربية المتعلقة خاصة بالتجارب اللسانية بصفة عامة و التربوية بصفة خاصة في ميدان تدريس اللغة ممّا مكّنه هي المهدي إلى وضع أسس و مقاييس توجه العملية التعليمية و توصل إلى أفضل النتائج لتحصيل ملكة اللسان.

خاتمة:

في نهاية هذا البحث توصلنا إلى أن اللغة يوجد فيها مصطلحات لها دلالات وظيفية في الاستعمال لذا خلصنا إلى اقتراح منهج مصطلحي في التعليم به تبني المناهج التعليمية كما لاحظنا أن جل المصطلحات التي استعملها عبد الرحمن الحاج صالح من خلال النظرية الخليلية الحديثة هي مصطلحات عربية فصيحة و أصيلة لفضا و معنى.حيث استطاع صياغة مصطلحات جديدة بفضل عمق تفكيره و تدقيقه في التراث ،ممّا يدل على أنّ المفاهيم موجودة في الموروث اللغوي العربي القديم.

الهوامش :

1. بشير إبرير، التعليمية النصوص بين النظرية و التطبيق، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ط1،2007، ص 09.
2. رشيد بناني، من الديداكتيك إلى البيداغوجيا،الحوار الأكاديمي و الجامعي،الدار البيضاء،المغرب، ط1، 1991م، ص39.
3. فريدة شنان، مصطفى هجرسي، المعجم التربوي doxique pédagogique، ملحقة سعيدة الجهوي، المركز الوطني للوثائق التربية، الجزائر، 2009م، ص99.
4. فريدةشنان،مصطفى هجرسي،المعجم التربويdoxique pédagogique،مرجع سابق، ص52.
5. رشيد نبيل و آخرون، الأسس العامة للتدريس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م،ص29.
6. محسن علي عطية، الكافي في أساليب تدريس اللغة العربية، دار الشروق للنشر و التوزيع،عمان، الأردن، ط1، 2006م،ص55.
7. صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار الهومة، الجزائر، ط1، 2000م، ص55.
8. صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، مرجع السابق، ص90،ص91.
9. محمد جاسم محمد، نظريات التعلّم، مرجع سابق،ص45.
10. بن قطايه بلقاسم :دور اللسانيات في تعليم اللغة العربية و تطبيقاتها على الطور الأول الابتدائي، مذكرة ماجستير، جامعة ورقلة،الجزائر، 2010م ،ص75.
11. عبده الراجحي،علم اللغة التطبيقي و تعلم العربية، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية، مصر، د ط ، 1995م ،ص23

12. عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي و تعلم العربية، مرجع سابق، ص89.
13. عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، ج2،منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، موفم للنشر، الجزائر، ط1،2007م ،ص44.
14. بشير إبرير،علم المصطلح و ممارسة البحث في اللغة العربية،مجلة المخبر، أبحاث في اللغة و الأدب الجزائري، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر،ص17.
15. عبد الرحمن الحاج صالح،النظرية الخليلية الحديثة، مفاهيمها الأساسية ،مركز البحث العلمي و التقني لتطوير اللغة العربية ،ع4 ،2007م ،ص05.
16. المصدر السابق، ص05.
17. المصدر نفسه، ص17.
18. المصدر نفسه، ص158
19. المصدر نفسه، ص185.
20. المصدر نفسه، ص193.
21. المصدر نفسه، ص193.
22. ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث و دراسات في علوم اللسان، مصدر سابق، ص184-199.